الباب السادس

بين يدي رمضان

إذا العشرون من شعبان ولت

يا إخوتاه ليس من رغب إلى اللّٰه كمن رغب عن اللّٰه – ليس من بقي مع اللّٰه كمن بقي عن اللّٰه – ليس من عمره كله رمضان كمن عمره كله للجشاء والطعام فمن الناس قوم قبل رمضان يأخذون بحظ أنفسهم من الشهوات والأكل ويقولون هي أيام توديع للأكل والطعام .

وربما لم يقتصر كثير منهم على اغتنام الشهوات المباحة بل يتعدى إلى المحرمات وهذا هو الخسران المبين ، وأنشد لبعضهم :

إذا العشرون من شعبان ولت فواصل شرب ليلك بالنهار
ولا تشرب بأقداح صغار فإن الوقت ضاق على الصغار

ونرد عليه :

إذا العشرون من شعبان ولت فواصل ذكر ليلك بالنهار

وقال آخر :

جاء شعبان منذراً بالصيام فاسقياني راحاً بماء الغمام

ومن كانت هذه حاله فالبهائم أعقل منه وله نصيب من قوله : ﴿ **ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها** ﴾ الآية وربما تكره كثير منهم بصيام رمضان حتى أن بعض السفهاء من الشعراء كان يسبه وكان للرشيد ابن سفيه فقال مرة شعراً :

دعاني شهر الصوم لا كان من شهر ولا صمت شهراً بعده آخر الدهر
فلو كان يعديني الأنام بقدرة على الشهر لاستعديت جهدي على الشهر

فأخذه داء الصرع فكان يصرع في كل يوم مرات متعددة ومات قبل أن يدركه رمضان آخر .

وهؤلاء السفهاء يستثقلون رمضان لاستثقالهم العبادات فيه من الصلاة والصيام فكثير من هؤلاء الجهال لا يصلي إلا في رمضان إذا صام .

وكثير منهم لا يجتنب كبائر الذنوب إلا في رمضان فيطول عليه ويشق على نفسه مفارقتها لمألوفها فهو يعد الليالي ليعود إلى المعصية وهؤلاء مصرون على ما فعلوا وهم يعلمون .

كما يقول قائلهم أحمد شوقي :

رمضان ولّى هاتها يا ساقي مشتاقة تسعى إلى مشتاق

وحكاية محمد بن هارون البلخي مشهورة وقد رويت من وجوه وهو أنه كان مصرّاً على شرب الخمر فجاء في آخر يوم من شعبان وهو سكران فعاتبته أمه وهي تسجر تنوراً فحملها فألقاها في التنور فاحترقت وكان بعد ذلك قد تاب وتعبد فرؤي له في النوم أن اللّه قد غفر للحاج كلهم سواه ، فمن أراد اللّه به خيراً حبب إليه الإيمان وزينه في قلبه وكره إليه الكفر والفسوق والعصيان فصار من الراشدين ، ومن أراد به شرّاً خلى بينه وبين نفسه فأتبعه الشيطان فحبب إليه الكفر والفسوق والعصيان فكان من الغاوين - فالحذر الحذر من المعاصي فكم سلبت من نعم وكم جلبت من نقم وكم خرّبت من ديار وكم أخلت دياراً من أهلها فما بقي منهم ديّار ، كم أخذت من العصاة بالثمار ، كم محت لهم من آثار .

يا صاحب الذنب لا تأمن عواقبه عواقب الذنب تخشى وهي تنتظر
فكل نفس ستجزى بالذي كسبت وليس للخلق من ديّانهم وزرٌ[1]

فيا من ذنوبه كثيرة لا تُعدّ ، ووجه صحيفته بمخالفته قد اسودّ ، كم ندعوك إلى الصيام وتأتي إلى الصدّ ، أما الموت قد سعى نحوك وجدّ ، أما عزم أن يلحق بالأب والجد ، أما ترى منعماً أترب الثرى منه الخد ، فاحذر أن يأتي على العاصي فإنه إذا أتى أبى الرد .

---

(١) « لطائف المعارف » بتصرف (ص ١٥٣ - ١٥٤) .

ألـم يأن تـــركي ما علــيّ ولا لــيَا وعَــزْمي علــى ما فيه إصلاح حاليا
وقد نـال منـي الدهر وابيض مفرقي بكـرّ الليــالي والليــالي كمـا هيـا
أصـــوّتُ بالدنـــيا وليست تجيبنـــي أحـاول أن أبقـى وكيـف بقـائيا
ومــا تبــرح الأيـام تحذف مـدتي بعدّ حسـاب لا كعـدّ حسـابيا
أليس الليــالي غاصباتــي مهجتــي كما غصبت قبلــي القـرون الخواليا
وتسكننـــي لحــداً لـدى حفـرة بها يطــول إلـى أخـرى الليالي ثُوائيا
فيـا ليتنـــي مــن بعـد موتـي ومبعثي أكـــون ترابًـا لا علــيّ ولا ليَـا

فاغتنموا إخواني زمنكم ، وبادروا بالصحة سقمكم ، واحفظوا أمانة التكليف لمن أمنكم ، وكأنكم بالحميم وقد دفنكم ، وبالعمل في القبر قد ارتهنكم(١) ؟

أين حال هؤلاء الحمقى من قوم كان دهرهم كله رمضان ليلهم قيام ونهارهم صيام ؟!

باع قوم من السلف جارية فلما قرب شهر رمضان رأتهم يتأهبون له ويستعدون بالأطعمة وغيرها ، فسألتها فقالوا نتهيأ لصيام رمضان فقالت وأنتم لا تصومون إلا رمضان ! لقد كنت عند قوم كل زمانهم رمضان ردوني عليهم .

باع الحسن بن صالح جارية له فلما انتصف الليل قامت فنادتهم يا أهل الدار الصلاة الصلاة ، قالوا طلع الفجر ؟ قالت : وأنتم لا تصلون إلا المكتوبة !! ثم جاءت الحسن فقالت : بعتني إلى قوم لا يصلون إلا المكتوبة ردني ردني .

قيل لبشر إن قوماً يتعبدون ويجتهدون في رمضان فقط فقال : بئس القوم لا يعرفون لله حقّاً إلا في رمضان ، إن الصالح الذي يتعبد ويجتهد السنة كلها .

وقيل لأحد الصالحين أيهما أفضل رجب أو شعبان فقال : كن ربانيّاً ولا تكن شعبانيّاً .

قال بعض السلف : صم الدنيا ، واجعل فطرك الموت ، الدنيا كلها شهر

---

(١) « التبصرة » (٢ / ٢٦٦- ٢٦٧) .

رمضان ، المتقون يصومون فيه عن الشهوات المحرمات فإذا جاءهم الموت فقد انقضى شهر صيامهم واستهلوا عيد فطرهم .

وقد صمت عن لذّاتِ دهري كلها ويـوم لقـاكم ذاك فطـر صيامـي

من صام اليوم عن شهواته أفطر عليها بعد مماته ، ومن تعجّل ما حرم عليه قبل وفاته عوقب بحرمانه في الآخرة وفواته . شاهد ذلك قوله : ﴿ أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ﴾ [الأحقاف : ٢٠] (١) .

التهنئة بقدوم رمضان

« كان رسول اللّه ﷺ يبشر أصحابه بقدوم رمضان كما أخرجه الإمام أحمد ، والنسائي فعن أبي قلابة عن أبي هريرة قال رسول اللّه ﷺ يبشر أصحابه « **قد جاءكم شهر رمضان شهر مبارك افترض اللّه عليكم صيامه ، يفتح فيه أبواب الجنة ويغلق فيه أبواب الجحيم وتغل فيه الشياطين ، فيه ليلة خير من ألف شهر من حرم خيرها فقد حرم** » (٢) .

قال ابن رجب : « هذا الحديث أصل في تهنئة الناس بعضهم بعضاً بشهر رمضان كيف لا يبشر المؤمن بفتح أبواب الجنان ، كيف لا يبشر المذنب بغلق أبواب النيران ، كيف لا يبشر العاقل بوقت يغل فيه الشيطان .

من أين يشبه هذا الزمان زمان ؟!

قال معلى بن الفضل : كانوا يدعون اللّه ستة أشهر أن يبلغهم رمضان ثم يدعونه ستة أشهر أن يتقبل منهم .

وقال يحيى بن أبي كثير : « كان من دعائهم اللهم سلمني إلى رمضان وسلم لي رمضان وتسلمه مني متقبلاً » .

---

(١) « لطائف المعارف » (ص ١٥٤ – ١٥٥) .

(٢) إسناده صحيح : « رواه النسائي والبيهقي ، كلاهما عن أبي قلابة ، انظر « مسند أحمد » (٧١٤٨ ، ٩٤٩٣ ، ٨٩٧٩) تحقيق شاكر ، عن أبي هريرة ، قال الشيخ أحمد شاكر في التعليق على مسند أحمد (٧١٤٨) ، إسناده صحيح ، وفي « التهذيب » يقال أنه لم يسمع من أبي هريرة ولم أجد ما يؤيد هذا ، وأبو قلابة – عبد اللّه بن زيد – لم يعرف بتدليس والمعاصرة كافية في الحكم بوصل الإسناد .

بلوغ شهر رمضان وصيامه نعمة عظيمة على من أقدره اللَّه عليه .

عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال : « كان رجلان من بلى من قضاعة أسلما مع النبي ﷺ واستشهد أحدهما وأُخِّر الآخر سنة قال طلحة بن عبيد اللَّه : فأريت الجنة فرأيت فيها المؤخر منهما أدخل قبل الشهيد فعجبت لذلك فأصبحت فذكرت ذلك لرسول اللَّه ﷺ أو ذُكر ذلك لرسول اللَّه ﷺ فقال رسول اللَّه ﷺ : **« أليس قد صام بعده رمضان ، وصلى ستة آلاف ركعة أو كذا وكذا ركعة صلاة السنة »**[(١)] .

عن أبي سلمة ، عن طلحة بن عبيد اللَّه أن رجلين من بَليٍّ قدما على رسول اللَّه ﷺ وكان إسلامهما جميعاً : فكان أحدهما أشد اجتهاداً من الآخر ، فغزا المجتهد منهما فاستشهد ثم مكث الآخر بعده سنة ثم توفي .

قال طلحة : فرأيت في المنام : بينا أنا عند باب الجنة ، إذا أنا بهما ، فخرج خارج من الجنة فأذن للذي توفي الآخر منهما ثم خرج فأذن للذي استشهد ثم رجع إليّ فقال : أرجع فإنك لم يأن لك بعد .

فأصبح طلحة يحدث الناس فعجبوا لذلك فبلغ ذلك رسول اللَّه ﷺ وحدثوه الحديث : فقال : من أيِّ ذلك تعجبون ؟ فقالوا : يا رسول اللَّه هذا كان أشد الرجلين اجتهاداً ثم استشهد ودخل هذا الآخر الجنة قبله فقال رسول اللَّه ﷺ : **« أليس قد مكَثَ هذا بعده سنة؟** قالوا : بلى : قال : **وأدرك رمضان فصام وصلى كذا وكذا من سجدة في السنة؟** قالوا : بلى ، قال رسول اللَّه ﷺ : **« فما بينهما أبعد مما بين السماء والأرض »**[(٢)] .

من رحم في رمضان فهو المرحوم ، ومن حرم خيره فهو المحروم ، ومن لم يتزود لمعاده فيه فهو ملوم .

أتى رمضان مزرعة العباد لتطهير القلوب من الفساد

---

(١) إسناده صحيح انظر مسند أحمد بتحقيق شاكر حديث رقم (٨٣٨٠ ، ٨٣٨١) (١٦ / ١٧٠ - ١٧١) .

(٢) صحيح رواه ابن ماجة في « سننه » كتاب الرؤيا باب تعبير الرؤيا » وصححه الألباني ، انظر « صحيح سنن ابن ماجة حديث رقم (٣١٧١ ج٢ / ٣٤٥ - ٣٤٦) .

فأد حقوقه قولاً وفعلاً وزادك فاتخذه للمعاد
فمن زرع الحبوب وما سقاها تأوّه نادماً يوم الحصاد

وقال الشاعر :

إذا رمضان أتى مقبلاً فأقبل بالخير يستقبل
لعلك تخطئه قابلاً وتأتي بعذر فلا يقبل

كم ممن أمّل أن يصوم هذا الشهر فخانه أمله فصار قبله إلى ظلمة القبر ، كم من مستقبل يوماً لا يستكمله ، ومؤمل غداً لا يدركه ، إنكم لو أبصرتم الأجل ومسيره لأبغضتم الأمل وغروره .

يا ذا الذي ما كفاه الذنب في رجب حتى عصى ربه في شهر شعبان
فاحمل على جسد ترجوه النجاة له فسوف تضرم أجساد بنيران
كم كنت تعرف ممن صام في سلف من بين أهل وجيران وإخوان
أفناهم الموت واستبقاك بعدهم حيا فما أقرب القاصي من الداني
ومعجب بثياب العيد يقطعها فأصبحت في غدٍ أثواب أكفان
حتى متى يعمر الإنسان مسكنه يصير مسكنه قبر لإنسان [١]

اعلم يا أخي أن الناصح لنفسه لا تخرج عنه مواسم الطاعات وأيام القربات عطلاً لأن الأبرار ما نالوا البر إلا بالبر .

يضع نصب عينيه قول رسول اللَّه ﷺ :« **افعلوا الخير دهركم ، وتعرضوا لنفحات رحمة اللَّه ، فإن للَّه نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده** » [٢] .

وقوله ﷺ :« **إن لربكم في أيام دهركم نفحات فتعرضوا لها لعل أحدكم أن يصيبه**

(١) « لطائف المعارف » (ص ١٥٥ - ١٥٧) .
(٢) حسن : رواه الطبراني في « الكبير » عن أنس وقال الهيثمي إسناده رجاله رجال الصحيح وحسنه الألباني في « الصحيحة » رقم (١٨٩٠) .

منها نفحة لا يشقى بعدها أبداً » .

فيتعرض لإحسان مولاه ، سبحانه من كريم أضحت رحالنا بباب كرمه مطروحة ورمضان سيد الشهور وتاج على مفرق الأيام والدهور .

رمضان ربيع التقيّ وقد فاح فوّاحه ... رمضان يوسف الزمان في عين يعقوب الإيمان .

فمرحى بشهر طيب كريم مبارك .

* شهر نزول القرآن والكتب السماوية ، شهر الشفاعة بالصيام والقرآن .
* شهر التراويح والتهجد .
* شهر التوبة وتكفير الذنوب .
* شهر تصفيد الشياطين .
* شهر غلق أبواب الجحيم .
* شهر فتح أبواب الجنان .
* شهر الجود والإحسان .
* شهر العتق من النيران .
* شهر ليلة القدر .
* شهر الدعاء .
* شهر الجهاد .
* شهر مضاعفة الحسنات .
* شهر الصبر والشكر .

فهلم يا باغيَ الخير إلى شهر يضاعف فيه الأجر للأعمال ، فَنصَبَ المجتهدين في خدمة مولاهم في هذا الشهر هو الراحة .

بين الجوانح في الأعماق سكناه فكيف أنسى ومن في الناس ينساهُ
وكيف أنسى حبيباً كنت من صغري أسير حسن له جلَّت مزاياه
ولم أزل في هواه ، ما نقضتُ له عهداً ولا مَحَتِ الأيام ذكراه
قد شاخ جسمي ولكن في محبته ما زال قلبي فتىً في عشق معناه
في كل عام لنا لقيا محببة يهتز كل كياني حين ألقاه
بالعين والقلب بالآذان أرقبه وكيف لا وأنا بالروح أحياه
والليل تحلو به اللقيا وإن قصرت ساعاتها ما أُحيلاها وأحلاه
فنوره يجعل الليل البهيم ضحى فما أجلَّ وما أجلى محياه
ألقاه شهراً ولكن في نهايته يمضي كطيف خيال قد لمحناه
في موسم الطهر في رمضان الخير، تجمعنا محبة اللّه لا مال ولا جاه
من كل ذي خشية للّه ذي ولع بالخير تعرفه دوماً بسيماه
قد قدروا موسم الخيرات فاستبقوا والاستباق هنا المحمود عقباه
صاموه قاموه إيماناً ومحتسباً أحيوه طوعاً وما في الخير إكراه
وكلهم بات بالقرآن مندمجاً كأنه الدم يسري في خلاياه
فالأذن سامعة والعين دامعة والروح خاشعة والقلب أوّاه

* هبت اليوم على القلوب نفحة من نفحات نسيم القرب في رمضان وسعى سمسار الوعظ للمهجورين في الصلح ووصلت البشارة للمنقطعين بالوصل ، وللمذنبين بالعفو والمستوجبين النار بالعتق ، لما سلسل الشيطان في شهر رمضان ، وخمدت نيران الشهوات بالصيام ، انعزل سلطان الهوى ، وصارت الدولة لحاكم العقل بالعدل ، فكم يبق للعاصي عذر .

يا غيوم الغفلة عن القلوب تقشّعي ، يا شموس التقوى والإيمان اطلعي ، يا صحائف أعمال الصائمين ارتفعي ، يا قلوب الصائمين اخشعي ، يا أقدام المتهجدين اسجدي لربك واركعي ، يا عيون المجتهدين لا تهجعي ، ياذنوب التائبين لا ترجعي ، يا أرض الهوى ابلعي ماءك ويا سماء النفوس اقلعي ، يا بروق العشاق للعشاق المعي ، يا خواطر العارفين ارتعي ، يا همم المحبين بغير اللّه لا تقنعي قد مدّت في هذه الأيام موائد الأنعام للصوّام فما منكم إلَّا مَنْ دعي ﴿ يا قومنا أجيبوا داعي اللّه ﴾ [الأحقاف : ٣١] .

ويا همم المؤمنين أسرعي ، فطوبى لمن أجاب فأصاب ، وويل لمن طُرد عن الباب وما دعي .

ليت شعري إن جئتهم قبلوني — أم تراهم عن بابهم يصرفوني
أم تراني إذا وقفت لديهم — يأذنوا بالدخول أم يطردوني[١]

يا من طالت غيبته عن مولاه ، قد قربت أيام المصالحة ، يا من دامت خسارته قد أقبلت أيام التجارة الرابحة ، كم ينادي حيّ على الفلاح وأنت خاسر ، وكم تدعى إلى الصلاح وأنت على الفساد مثابر .

من لم يربح في رمضان ففي أي وقت يربح ، ومن لم يقرب فيه من مولاه فهو على بعده لا يبرح .

يتلذذون بذكره في ليلهم — ويكابدون لدى النهار صياما
فسيغنمون عرائساً بعرائس — ويُبَوَّءون من الجنان خياماً
وتقر أعينهم بما أخفى لهم — وسيسمعون من الجليل سلاماً[٢]

* * *

(١) « لطائف المعارف » (ص ١٤٢ - ١٤٣) .
(٢) « عقود اللؤلؤ والمرجان في وظائف شهر رمضان » للشيخ إبراهيم بن عبيد آل عبد المحسن .

رمضـــــان

أضيف أنتَ حَلَ على الأنَامِ ... وأقسَم أَنْ يُحيَّا بالصِّيام ؟!
قطعتَ الدهر جَوَّاباً وفيّاً ... يَعودُ مَزارَهُ في كلِّ عام
تُخيِّم .. لا يَحدُّ حماكَ ركنٌ ... فكلُّ الأرض مهدٌ للخيام
نسَخْتَ شعائرَ الضِّيفان ، لمَّا ... قنعتَ من الضِّيافة بالمقامِ
ورُحت تَسُنُّ للأجوادِ شرعاً ... من الإحسان عُلوِيَّ النظام ،
بأنَّ الجودَ حِرمَانٌ وزُهدٌ ... أعزُّ منَ الشَّراب أو الطعَامِ !!
أشهرٌ أنتَ أم رُؤْيا مَتابِ ... تألَّق طيفُها مثل الشِّهابِ ؟
تَمرَّغَ في ظلالِكَ كلُّ عاصٍ ... وكلُّ مَرجَّسٍ دَنِسِ الإهابِ
فأنتَ محيِّر الآثام .. تَجْري ... فتَلْحقها بأحلام العذابِ
تَراكَ شفيعَ تَوْبتها ، فتَخزَى ؛ ... وتُوأَدُ تحت أجنِحَةِ الشَّبابِ !
وأنتَ مَنارة الغُفْران ، يأوِي ... إليك اليائسون من المَتابِ
وعندَ اللّه سُؤْلُك مستَجابٌ ... ولو حُمِّلتَ أوزارَ التُّراب!!
وقفتَ خُطاكَ عندَ البائسينا ... فكنتَ لِلَيْلِهِمْ فلقاً مُبِينا
تُساقُ إليكَ أمواجُ التَّحايا ... فتدْفَعُها لبابِ المُعوِزِينا
فكم آهات محروم حَداها ... إليك البؤسُ ! فانقَلَبَتْ رَنيناً
فأنتَ مفزِّع البُخَّال .. تَجْري ... خُطاكَ على حِجارتِهِمْ مَعينا
وأَنتَ مُلَقن الأيدي نَداها ... ومُكسِبُها التَّراحُمَ والحْنينا
يخافكَ كلُّ قارونٍ شحيحِ ... فيخْجَلُ أنْ يُردَّ السَّائلينا

ومُنْذُ تَهِلُّ ترهَبُكَ الذُّنُوبُ ... وتَختَشِعُ السرائرُ والقلوبُ
وتفزعُ أن تُقابلك المَعاصي ... فتُهْرَعُ أو تُقَنَّعُ ، أو تذُوبُ
ويُجفل أنْ يراك أخو هَواها ... ولو قَتَلَتْ مشاعره الغُيوبُ
كأنَّكَ فارسُ الأيام ، تَبدُو ... فيصعقها مُهنَّدُكَ الغَضُوبُ
كأنَّ بكفِّك البيضاء سرّاً ... من النَّجوى تَكتَّمُهُ الغيوبُ
تُجابهُ كلهَ غَيَّانٍ عَنيدِ ... فيَكتَتِمُ الغِوايةَ أو يَتُوبُ
جعلتَ النَّاس في وقت المغيبِ ... عبيدَ ندائكَ العاتي الرَّهيبِ
كم ارتقَبُوا الأذانَ كأنَّ جُرْحاً ... يُعذِّبُهمْ تَلَفَّتْ للطَّبيب
وأتلَعَتِ الرِّقاب بهم ، فلاحوا ... كَرُكْبانٍ علَى بلَدٍ غَريبِ
عُتاةُ الإنسِ ، أنتَ نسخْتَ منهم ... تَذَلُّلَ أَوْجُهِ وضنى جُنوبِ
فيا .. من لقْمة ، حفيف ماءِ ... يُقلِّب روحَه فوقَ اللهيب
علامَ البغْيُ والطغيان ؟! إنِّي ... كفَرتُ بمنطق الدُّنيا العَجيبِ !
تَلفَّتْ للمآذِنِ حالياتِ ... كَحُورِيَّات خلْد سافِراتِ
تفوحُ مباخرُ النُّسَّاك منها ... فتحسبُها غُصوناً عاطراتِ

تلألأ حولهـا أطـواق نـور

كأنكَ حاملٌ وحياً إليها ... وقَفْنَ لسِحرِه متلهِّفاتِ
إذا صاحَ الأذانُ بها أَرنَّتْ ... بإلهامٍ كموْج البَحرِ عاتِ
يذكِّرُ بالهِدايةِ كلَّ ناسِ ... ويُوقِظُ كلَّ غافٍ في الحيَاةِ!
وهذا المُعجِزُ العالي الرَّخيمُ ... أذانُ اللَّه ، والذِّكرُ الحكيم
تَلاهُ في سكون اللَّيل تالِ ... فكاد لِهَوْله تَهوِي النُّجومُ

نِـداء تـفـزَعُ الأفـلاك مـنـه ... ويـخـشـعَ فـي مـساريه الـسَّديمُ
على سمْع الهُداة يَضُوعُ عطراً ... وتُـقـذَفُ مـنـه لـلـغـاوي رُجُـومَ
أصـاخ الـكـونُ مـسـحـوراً إلـيـه ... وخَــرَّ لـبـأسِـه الأزلُ الـقَـديمُ
تَـنَـزَّلَ فـوق صـدرِكَ مـنْ عـلاه ... يشيـرُ الوَحْي ، والدِّينُ القَويمُ
سـلاماً نـاسَـكَ الـزَّمـنِ الـقَـوِيِّ ... مـنَ الـقـلـبِ الحزيـن الـشـاعـريِّ
حـمـلـتُ إلـيـك أشواقـي وسرِّي ... لتَـحْـمِـلَـهـا إلـى الأُفُـق الـعَـلِـي
أمُـرُّ بـهـا عـلـى زمـنـى غـريـبـاً ... كـطَـيـرٍ تـاهَ فـي ظُـلَـم الـعَـشيِّ
وأعـزِفُ لـلـصَّـبـائـحِ والأَمـاسـي ... فـينـتَـفِـضُ الـغـنـاءُ لِـكُـلِّ حَـيِّ
كـأنـي مـا ذرفـتُ أسـىَ زمـانـي ... ولا أَفـضَـى صَـداي بأيِّ شَـيء !!
طَـلـعْـتَ مـنـوِّراً فـوق الـعـبـاد ... فـأيـقـظْ مـن تـشـبَّـثَ بـالـرُّقـاد
وقل للشَّرق : إنَّ الكون يَمْشي ... عـلـى سُـبُـلٍ مـغـيَّـبـة الـرَّشـاد
فـخُـذ لـزمـانـكَ الـزَّادَ المرَجَّـى ... مـن الخُلُـقِ الـقـويم والاتِّحـاد
ولا يـوقـفْـكَ فـي الـتـيـار هـوْلٌ ... فـنـارُ الـهـوْل ، نـورٌ لـلـجـهـاد
لـقـد ملَّـتْ تـقـلُّـبنـا الـلـيـالـي ... عـلـى وَضَـرِ الـتَّـنعُّـمِ والـفَـسَـاد
شَـذَا لـكَ بالأذان خـميلُ مصرِ ... فَقُمْ..وانشُر صَداهُ على البَوادِي !![1]

* * *

---

(١) محمود حسن إسماعيل الديوان الحادي عشر صوت من الله قصيدة : « الزمن » رمضان ص (١٧٦٣- ١٧٧٠) .

مـدرسـة الثلاثـين يوماً

« شهر للثورة » (*)

* يقول الأديب الفاضل مصطفى صادق الرافعي رحمه اللَّه .

« لم أقرأ لأحدٍ قولاً شافياً في فلسفة الصوم وحكمتِه ؛ أما منفعتُه للجسم ، وأنه نوعٌ من الطب له ، وبابٌ من السياسة في تدبيره ؛ فقد فرغ الأطباءُ من تحقيق القول في ذلك ؛ وكأن أيامَ هذا الشهر المبارك إن هي إلا ثلاثون حبَّةً تؤخذُ في كل سنة مرةً لتقوية المعدة وتصفية الدم وحياطة أنسجة الجسم ؛ ولكنا الآن لسنا بصدد من هذا ، وإنما نستوحي تلك الحقيقة الإسلامية الكبرى التي شَرعت هذا الشرع لسياسة الحقائق الأرضية الصغيرة ، عاملةً على استمرارِ الفكرة الإنسانية فيها ، كي لا تتبدَّل النفس على تغير الحوادث وتَبَدُّلِها ، ولكيلا تجهل الدنيا معاني الترقيع إذا أتت على هذه الدنيا معاني التمزيق .

من معجزات القرآن الكريم أنه يدَّخرُ في الألفاظ المعروفة في كل زمن ، حقائقَ غيرَ معروفة لكل زمن ، فيُجلِّيها لوقتها حين يَضِجُّ الزمانُ العلميُّ في مَتَاهَتِه وحَيرَته ، فيَشغَبُ على التاريخ وأهله مستَخِفّاً بالأديان ، ويذهبُ يتتبَّعُ الحقائق ، ويستقصي في فنون المعرفة ، ليستخلصَ من بينِ كُفرٍ وإيمان ديناً طبيعيّاً سائغاً ، يتناولُ الحياة أول ما يتناولُ فيضبطها بأسرار العلم ، ويوجِّهُها بالعلم إلى غايتها الصحية ، ويضاعف قُواها بأساليبه الطبيعية ، ليحقِّق في إنسانية العالم هذه الشيئية المجهولة التي تتوهمُها المذاهبُ الاجتماعية ولم يهتد إليها مذهبُ منها ولا قاربَها ؛ فما برحت سعادةُ الاجتماع كالتجربة العلمية بين يَدي علمائها : لم يحققوها ولم ييأسوا منها ، وبقيت تلك المذاهبُ كعقارب الساعة في دورَتِها : تبدأ من حيثُ تبدأ ثم لا تنتهي إلا إلى حيثُ تبدأ . .

يضطرب الاشتراكيون في أوربا وقد عجزوا عجز من يحاول تغيير الإنسان

(*) كتبها في شهر رمضان سنة ١٣٥٣ هـ ، وانظر « عود على بدء » من كتاب حياة الرافعي .

بزيادة ونقص في أعصابه ؛ ولا يزال مذهبهُم في الدنيا كُتُب ورسائل ؛ ولو أنهم تدَبَّرُوا حكمة الصوم في الإسلام ، لرأوا هذا الشهر نظاماً عمليّاً من أقوى وأبدع الأنظمة الصحيحة : فهذا الصومُ فَقرٌ إجباريّ تَفرضه الشريعةُ على الناس فرضاً ليتساوَى الجميع في بواطنهم ، سواء منهم من مَلَك المليونَ من الدنانير ، ومن ملك القرش الواحد ، ومن لم يملك شيئاً ؛ كما يتساوى الناسُ جميعاً في ذهاب كبريائهم الإنساني بالصلاة التي يفرضُها الإسلامُ على كل مسلم ؛ وفي ذهاب تَفاوُتِهم الاجتماعي بالحج الذي يفرضُه على من استطاع .

فقرُ إجباريٌّ يراد به إشعار النفس الإنسانية بطريقة عملية واضحة كل الوضوح ، أن الحياة الصحيحة وراء الحياة لا فيها ، وأنها إنما تكون على أتمها حين يتساوى الناس في الشعور لا حين يختلفون ، وحين يتعاطفون بإحساس الألم الواحد لا حين يتنازعون بإحساس الأهواء المتعددة .

ولو حقَّقت رأيت الناسَ لا يختلفون في الإنسانية بعقولهم ، ولا بأنسابهم ، ولا بمراتبهم ، ولا بما ملكوا ؛ وإنما يختلفون ببطونهم وإحكام هذه البطون على العقل والعاطفة ؛ فمن البطن نكبةُ الإنسانية ، وهو العقلُ العمليُّ على الأرض ؛ وإذا اختلف البطنُ والدماغُ في ضرورةٍ ، مدَّ البطنُ مدَّهُ من قَوَى الهضم فلم يُبقِ ولم يَذَرْ .

ومن ههنا يتناولُه الصوم بالتهذيب والتأديب والتدريب ، ويجعل الناس فيه سواءً: ليس لجميعهم إلا شعورٌ واحد وحس واحد وطبيعةٌ واحدة ؛ ويُحكم الأمر فيحولُ بين هذا البطن وبين المادة ، ويبالغ في إحكامه فيمسك حواشيه العضبية في الجسم كله يمنعُها تغذيتها ولذتها .

وبهذا يضَعُ الإنسانيةَ كلَّها في حالة نفسيةٍ واحدة تَتَلبَّسُ بها النفسُ في مشارق الأرض ومغاربها ، ويُطلق في هذه الإنسانية كلها صوت الروح يُعلم الرحمة ويدعو إليها ، فيُشبعُ فيها بهذا الجوعِ فكرة معينة هي كلُّ ما في مذهب الاشتراكية[1] من الحق ، وهي تلك الفكرةُ التي يكون عنها مساواة الغني للفقير من طبيعته ، واطمئنان

(١) ليس فيها أي حق .

الفقير إلى الغنيّ بطبيعته ؛ ومن هذين : (الاطمئنان والمساواة) ، يكون هدوءُ الحياة بهدوء النفسين اللّتين هما السَّلبُ والإيجابُ في هذا الاجتماع الإنساني ؛ وإذا أنت نزعتَ هذه الفكرة من الاشتراكية بقي هذا المذهبُ كلُّه عَبثاً من العَبث في محاولة جعلِ التاريخ الإنساني تاريخاً لا طبيعة له .

من قواعد النفس أن الرحمة تنشأ عن الألم ، وهذا بعضُ السرِّ الاجتماعي العظيم في الصوم ، إذ يبالغ أشدَ المبالغة ، ويدقق كلَّ التدقيق ، في منع الغذاء وشبه الغذاء عن البطن وحواشيه مدةً آخرُها آخرُ الطاقة ؛ فهذه طريقةٌ عملية لتربية الرحمة في النفس ، ولا طريقة غيرُها إلا النكباتُ والكوارث ؛ فهما طريقتان كما ترى مُبصرةٌ وعمياء ، وخاصةٌ وعامة ، وعلى نظام وعلى فجأة .

ومتى تحقَّقت رحمةُ الجائع الغني للجائع الفقير ، أصبح للكلمة الإنسانية الداخلية سلطانُها النافذ ، وحكم الوازع النفسي على المادة ؛ فيسمع الغني في ضميره صوت الفقير يقول : « أعطني » ثم لا يسمع منه طلباً من الرجاء ، بل طلباً من الأمر لا مفرَّ من تلبيته والاستجابة لمعانيه ، كما يُواسي المبتلى من كان في مثل بلائه .

أية معجزة إصلاحية أعجبُ من هذه المعجزة الإسلامية التي تقضي أن يحذفَ من الإنسانية كلها تاريخُ البطن ثلاثين يوماً في كل سنة ، ليحِلَّ في محله تاريخُ النفس[1] ؟ وأنا مُستيقن أن هناك نسبة رياضية هي الحكمة في جعل هذا الصوم شهراً كاملاً من كل اثني عشر شهراً ، وأن هذه النسبة متحقِّقةٌ في أعمال النفس للجسم ، وأعمال الجسم للنفس ؛ كأنه الشهرُ الصِّحيُّ الذي يفرضه الطبُّ في كل سنة للراحة والاستجمام وتغيير المعيشة ، لإحداث الترميم العصبيّ في الجسم ، ولعل ذلك آتٍ من العلاقة بين دورة الدم في الجسم الإنساني وبين القمر منذ يكون هلالاً إلى أن يدخل في المُحَاق ؛ إذ تنتفخُ العروقُ وتَربوا في النصف الأول من الشهر ، كأنها في (مَدّ) من نور القمر ما دام هذا النورُ إلى زيادة ، ثم يراجعُها (الجزرُ) في

---

(١) أفسد ضعف النفوس هذا المعنى ، فما يحقق الناس (تاريخ البطن) كما يحققونه في شهر رمضان ، وهم يعوضون البطن في الليل ما منعوه في النهار ، حتى جعلوا الصوم تغييراً لمواعيد الأكل .. ولكن الصوم على ذلك لم يحرمهم فوائده .

النصف الثاني حتى كأن للدم إضاءةً وظلاماً . وإذا ثبت أن للقمر أثراً في الأمراض العصبية ، وفي مدّ الدم وجَزرِه[١] ، فهذا من أعجب الحكمة في أن يكون الصيام شهراً قمريّاً دون غيره .

وفي ترائي الهلال ووجوب الصوم لرؤيته معنى دقيق آخر ، وهو - مع إثبات رؤية الهلال وإعلانها - إثباتُ الإرادة وإعلانُها ، كأنما انبعث أولُ الشعاع السماوي في التنبيه الإنساني العامّ لفروض الرحمة والإنسانية والبرّ .

وهنا حكمة كبيرة من حكم الصوم ، وهي عملُه في تربية الإرادة وتقويتها بهذا الأسلوب العمليّ ، الذي يُدرّبُ الصائم على أن يمتنع باختياره من شهوَاته ولذّةِ حيوانيته ، مُصِرّاً على الامتناع ، مُتهَيِّئاً له بعزيمته ، صابراً عليه بأخلاق الصبر ، مُزاولاً في كل ذلك أفضل طريقة نفسية لاكتساب الفكرة الثابتة ترسَخُ لا تتغيَّر ولا تتحّول ، ولا تعدو عليها عوادي الغريزة .

وإدراكُ هذه القوة من الإدراك العملية منزلةُ اجتماعية سامية ، هي في الإنسانية فوق منزلة الذكاء والعلم ، ففي هذين تعرض الفكرةُ مارّةً مُرورهَا ، ولكنها في الإرادة تعرِض لتستقرّ وتتحقَّق ، فانظر في أي قانون من القوانين ، وفي أية أمة من الأمم ، تجد ثلاثين يوماً من كل سنة قد فُرِضت فرضاً لتربية إرادة الشعب ومزاولتِه فكرة نفسيّةً واحدةً بخصائصها ومُلابساتها حتى تستقرّ وترسخ وتعودَ جزءاً من عمل الإنسان ، لا خيالاً يمر برأسه مَرّاً .

أليست هذه هي إتاحةَ الفرصة العملية التي جعلوها أساساً في تكوين الإرادة ؟ وهل تبلغ الإرادةُ فيما تبلغ ، أعلى من منزلتها حين تجعل شهوات المرء مُذعنَةً لفكرهِ ، منقادةً للوازع النفسيّ فيه ، مُصَرَّفَةً بالحسِّ الدينيِّ المسيطِرِ على النفس ومشاعِرِها .

أما واللّه لو عمَّ هذا الصومُ الإسلاميُّ أهلَ الأرض جميعاً ، لآل معناه أن يكون إجماعاً من الإنسانية كلِّها على إعلان الثورة شهراً كاملاً في السنة ، لتطهير العالم

---

(١) قال الجاحظ في (الحيوان) : « ولزيادة القمر حتى يصير بدراً ، أثر بين في زيادة الدماء في الأدمغة وجميع الرطوبات » .

من رذائله وفساده ، ومَحق الأَثَرَة والبخل فيه ، طرح المسألة النفسية ليتَدراسَهَا أهلُ الأرض دراسةً عمليةً مدة هذا الشهر بطوله ، فيَهبطُ كلُّ رجُلٍ وكل امرأة إلى أعماق نفسه ومكامنها ، ليختبرَ في مصنع فكره معنى الحاجة ومعنى الفقر وليفهم في طبيعة جسمه - لا في الكتب - معاني الصبر والثبات والإرادة ، وليبلغَ من ذلك وذلك درجات الإنسانية والمواساة والإحسان ؛ فيُحقِّق بهذه وتلك معاني الإخاء والحرية والمساواة .

شهرٌ هو أيام قلبيَّةٌ في الزمن ؛ متى أشرفَت على الدنيا قال الزمنُ لأهله : هذه أيامٌ من أنفسكم لا من أيامي ، ومن طبيعتكم لا من طبيعتي ؛ فيُقبلُ العالم كلُّه على حالة نفسية بالغة السموّ ، ويتعهَّدُ فيها النفس برياضتها على معالي الأمور ومكارم الأخلاق ، ويفهم الحياة على وجه آخرِ غير وجهها الكالح ، ويراها كأنما أجيعَت من طعامها اليوميّ كما جاع هو ، وكأنما أُفرِغَتْ من خَسائسِها وشهواتها كما فَرَغَ هو ، وكأنما أُلزِمَت معانيَ التقوى كما أُلزِمَها هو وما أجملَ وأبدع أن تَظهَر الحياةُ في العالم كله - ولو يوماً واحداً - حاملةً في يده السُّبحة .. ! فكيف بها على ذلك شهراً من كل سنة ؟

إنها واللّه طريقة عملية لرسوخ فكرة الخير والحق في النفس ؛ وتطهير الاجتماع من خسائس العقل الماديّ ؛ ورد هذه الطبيعة الحيوانية المحكومة في ظاهرها بالقوانين ، والمحرَّرةِ من القوانين في باطنها - إلى قانون من باطنها نفسه يُطهِّرُ مَشاعرَها ، ويسمو بإحساسها ، ويصرفها إلى معاني إنسانيتها ، ويُهذب من زياداتها ، ويحذف كثيراً من فُضُولها ، حتى يرجع بها إلى نحو من براءة الطفولة ، فيجعلها صافية مُشرقة بما يجتذبُ إليها من معاني الخير والصفاء والإشراق ؛ إذ كان من عمل الفكرة الثابتة في النفس أن تدعوَ إليها ما يلائمها ويتصل بطبيعتها من الفكر الأخرى والنفسُ في هذا الشهر مُحتَبَسَةٌ في فكرة الخير وحدها ، فهي تبني بناءَها من ذلك ما استطاعت .

هذا على الحقيقة ليس شهراً من الأشهر ، بل هو فصلٌ نَفساني كفصول الطبيعة في دَورَانها ؛ ولَهو واللّه أشبهُ بفصل الشتاء في حلوله على الدنيا بالجوِّ الذي من

طبيعته السحُبُ والغيث ، ومن عمله إمدادُ الحياة بوسائل لها ما بعدها إلى آخر السنة ، ومن رياضته أن يكسبِهَا الصلابة والانكماش والخفَّة ، ومن غايته إعداد الطبيعة للتفتُّح عن جمال باطنها في الربيع الذي يتلوه .

وعجيبٌ جدّاً أن هذا الشهر الذي يَدَّخر فيه الجسمُ من قواه المعنوية فيودِعُها مَصرِفَ روحانيته ، ليجدَ منها عند الشدائد مَدَدَ الصبر والثبات والعزم والجلَد والخشونة .

وسحرُ العظائم في هذه الدنيا إنما يكون في الأمة التي تعرف كيف تدَّخر هذه القوّة وتوفِّرها لتستمدّها عند الحاجة ، وذلك هو سِرُّ أسلافنا الأولين الذين كانوا يجدون على الفقر في دمائهم وأعصابهم ما تجدُ الجيوش العظمى اليوم في مخازن العتّاد والأسلحة والذخيرة .

كلُّ ما ذكرتُه في هذا المقال من فلسفة الصوم ؛ فإنما استخرجته من هذه الآية الكريمة : ﴿ **كُتِبَ عليكم الصيامُ كما كُتِبَ على الذين من قَبْلِكم لعلّكم تتقون** ﴾ [البقرة : ١٨٣] .

وقد فهمها العلماء جميعاً على أنها معنى « التقوى » ، أما أنا فأوَّلتُها من « الاتِّقَاء » ؛ فبالصوم يَتَّقي المرءُ على نفسه أن يكون كالحيوان الذي شريعتُه مَعِدَتُه ، وألا يُعامِلَ الدنيا إلا بمواد هذه الشريعة ؛ ويتّقي المجتمعُ على إنسانيته وطبيعته مثل ذلك ، فلا يكون إنسانٌ مع إنسان كحمارٍ مع إنسان يبيعه القوّة كلَّها بالقليل من العَلَف .

وبالصوم يتَّقى هذا وهذا ما بين يديه وما خلفه ، فإن ما بين يديه هو الحاضرُ من طباعه وأخلاقه ، وما خَلَفَه هو الجيلُ الذي سيرثُ من هذه الطّباع والأخلاق ، فيعمل بنفسه في الحاضر ، ويعمل بالحاضر في الآتي (١) .

---

(١) يفسر القرآن بعضه بعضاً ، ومن معجزاته في هذا التأويل الذي استخرجناه أنه يؤيده بالآية الكريمة في سورة (يس) : ﴿ **وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون ..** ﴾ ويشير إلى هذا التأويل قول النبي ﷺ : « **إنما الصوم جنة** (بضم الجيم) **فإذا كان أحدكم صائماً فلا يرفث ولا يجهل ، وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل : إني صائم ، وإني صائم** » .

الجنة : الوقاية يتقي بها الإنسان ، والمراد أن يعتقد الصائم أنه قد صام ليتقي شر حيوانيته وحواسه ، فقوله : « **إني صائم ، إني صائم** » ؛ أي إنني غائب عن الفحش والجهل والشر ؛ إني في نفسي وليست في حيوانيتي .

وكلُّ ما شرحناه فهو اتقاءُ ضرر لجلب منفعة ، واتقاءُ رذيلة لجلب فضيلة ؛ ولهذا التأويل تتوجَّه الآية الكريمةُ جهةً فلسفيةً عاليةً ، لا يأتي البيانُ ولا العلمُ ولا الفلسفةُ بأوجزَ ولا أكمل من لفظها ؛ ويتوجُّ الصيامُ على أنه شريعة اجتماعية إنسانيةٌ عامة ؛ يتَّقى بها الاجتماعُ شرورَ نفسِه ؛ ولن يتهذّبَ العالَم إلا إذا كان له مع القوانين النافذة هذا القانونُ العام الذي اسمُهُ الصومُ ، ومعناه « قانونُ البطن » ...

ألا ما أعظمَكَ يا شهر رمضان ! لو عَرَفَكَ العالَمُ حقَّ معرفتِك لسَمَّاكَ : « مدرسة الثلاثين يوماً » .

